النخبة التلمسانية ودورها الثقافي والسياسي والاجتماعي من نهاية القرن التاسع عشر إلى نهاية الحرب العالمية الأولى

د. إبراهيم مهديد

جامعةالسانية، وهران- الجزائر

ملخص

تسعى هذه الدراسة إلى التأريخ للنخبة التلمسانية من خلال المعطيات التالية:
أولا: الأصول الاجتماعية والثقافية لهذه النخبة ومراحل تكونها التاريخي والتطور الذي عرفته في مسيرتها بفضل المؤسسات الثقافية والتربوية التي كانت منتشرة في مدينة تلمسان وضواحيها كالمساجد والمدارس والكتاتيب والزوايا...الخ.
ثانيا: الدور الذي قامت به هذه النخبة بمختلف توجهاتها سياسيا واجتماعيا وثقافيا أثناء الاحتلال الفرنسي وتحديدا خلال الفترة مابين نهاية القرن التاسع عشر ونهاية الحرب العالمية الأولى، عبر صحافتها وأنديتها وجمعياتها التي أسستها في إطار نضالها السياسي داخل الحركة الوطنية بمنطقة الغرب الجزائري بصفة عامة.
الكلمات الدالة: الأمة، النخبة، المؤسسات الثقافية والدينية، الحركة الوطنية، السياسة.

تمهيد

عندما يعالج المؤرخون وعلماء الاجتماع والسياسية نوعا من هذه المواضيع، يجب أن يراعى منهجيا دراسة التواصل والاتصال الثقافي في المجتمع الجـزائري وواقعـه لاحقا داخل المناخ الوطني مع ميلاد الحركة الوطنية الجزائرية مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وتطوره في العقود اللاحقة.
فالبيئة الثقافية الجزائرية عانت كثيرا مثلما عانت الطبقات الاجتماعية هي الأخرى، إثر عمليات الاحتلال والغزو الفرنسي لمناطق البلاد، وبأساليب مختلفة. فالطبقة المثقفة الوطنية والبورجوازية كادت أن تختفي تحت ضربات المؤسسات الاستعمارية وسياسات الحكم في الجزائر طيلة فترة القرن التاسع عشر؛ وهي الطبقة التي حوت العلماء والقضاة والمفتين والأئمة والمعلمين وزعماء الدين والتجار. فالسياسة الاستعمارية «جففت الجزائر من طبقتها الوسطى التي كان من الممكن أن تلعب دورا حاسما في الاحتفاظ بالكيان الوطني، والقيم الثقافية والوجود السياسي للجزائر.
بل حتى أولئك البورجوازيون الذين تخلفوا سهوا في بلادهم كانوا قد أرغموا

إما على العيش الضنك وإما على الهجرة مؤخرا» [1].

فاللغة العربية، كمقوم من مقومات الشخصية الوطنية الجزائرية حوربت بمختلف الأساليب والمضايقات الإدارية، وكان الهدف من هذه الحرب التي شنها الاحتلال الفرنسي. «على اللغة العربية طوال قرن وثلث، هو القضاء عليها تمهيدا للقضاء على الثقافة العربية الإسلامية، وبالتالي القضاء على الشخصية الجزائرية»[2].

فالثقافة العربية الإسلامية التي تعتبر ثقافة المجتمع الجزائري القومية عبر المراحل التاريخية السابقة هي مقوم أساسي للشخصية الجزائرية سواء بكونها ترتكز على الثقافة العربية التي تشكل اللغة العربية إطارها الصحيح، وهي اللغة التي تميزت بتاريخ قديم متصل الحلقات، أو بكونها ثقافة سايرت الحضارة ونظمها، وساهمت في الإنتاج الثقافي في ميادين الأدب والفلسفة والعلوم عموما في عصور الازدهار الفكري للعرب، أو بكونها ثقافة ذات تراث فكري خصب متأثر أشد التأثر بالقرآن والدين والشريعة الإسلامية التي تعتبر محك المجتمع وأساس ما كان يلقن ويدرس في حلقات وأطوار التعليم المختلفة [3].

وهذه الجذور الثقافية العميقة في المجتمع الجزائري تكونت في الأساس وتاريخيا –قبل وخلال الفترة العثمانية واستمرت في النهوض من بعد– نتيجة الدور الذي قامت به المؤسسات الثقافية والتربوية في ربوع الجزائر كالمساجد والمدرسة والكتاتيب والزوايا التي قامت بمهمة التعليم مشرفة على تلامذته وطلابه ومدرسيه، فكانت «أكبر مؤسسة تغذي هذه المؤسسات الثقافية هي الأوقاف– الحبوس–» [4]، التي كان من أغراضها توفير العناية بالمساجد والمدارس والمعاهد والزوايا. وإلى جانب هذه المؤسسات الثقافية التي تكفلت بقضية تعليم المجتمع وتثقيفه، «يدين هذا التعليم كذلك لجهود الأفراد والعائلات، لأن بعض العثمانيين كأشخاص والجزائريين اشتركوا على السواء في تأسيس المدارس والاعتناء بها، وكان هؤلاء يهتمون ببناء المدارس والمساجد بدوافع

---

1 - أبو القاسم، سعد الله (1969). الحركة الوطنية الجزائري 1930-1900. ط1، ص 71، بيروت.

2 - تركي، رابح (1975). التعليم القومي والشخصية الجزائرية 1956-1930. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ص325، الجزائر.

3 من أفيد ما يمكن الاطلاع عليه تحت هذا الطرح هو إنتاج :
- تركي رابح، المرجع أعلاه
- أبو القاسم، سعد الله (1981). تاريخ الجزائر الثقافي. الجزء الأول والثاني، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
- الكعاك، عثمان (1957). مراكز الثقافة في المغرب من القرن 16 إلى القرن 19، معهد الدراسات العليا.

4 - حلوش، عبد القادر (1975). السياسة التعليمية في الجزائر 1914-1871. رسالة ماجستير، كلية الآداب، ص2، جامعة دمشق.

دينية ولخدمة العلم ولتخليد أسمائهم أحيانا أخرى» [5] .

1 - البيئة الثقافية في مقاطعة تلمسان

من المعروف تاريخيا أن التعليم في الجزائر كان منتشرا بشكل يشمل جميع المناطق الجزائرية وحتى النائية منها وخاصة داخل النواحي العريقة في الميدان الثقافي، كمدن تلمسان وندرومة ومعسكر ومازونة والعاصمة ولمدية وقسنطينة وغرداية والوادي وغيرها. ويقرّ الجنرال لويس رين Louis Rinn أنّ «التعليم الابتدائي كان منتشرا بينهم -أي الجزائريين- بمقدار انتشاره عندنا - في فرنسا- فتوجد المدارس للقراءة والكتابة في معظم الحواضر والقرى. فعملية مصادرة الأبنية الخاصة بالمساجد استنزفت بصورة خاصة كل موارد التدريس الذي يحوي من 2000 إلى 3000 صبي في كل مقاطعة؛ يتابع منهم عدد كبير 600 إلى 800 دراسته في علوم الفقه والشريعة والتفسير فيحصلون على لقب «العلماء»»[6]. إن مدن تلمسان ومازونة وقسنطينة وبجاية والجزائر العاصمة حوت قبيل الاحتلال الفرنسي مراكز لأكبر المعاهد العلمية والتربوية في الجزائر. غير أنه لا توجد ما نسميه «جامعة إسلامية» مثل الأزهر والقرويين أو الزيتونة، فعلى العكس كانت دروس الجوامع الكبيرة لتلك المدن الجزائرية تضاهي دروس الجامع الأموي والحرمين الشريفين لتنوع الدراسات فيها وتردد العلماء والمدرسين عليها من مختلف أنحاء العالم الإسلامي، فضلا عن المساجد التي كانت تعتني بتلقين اللغة العربية لطلابها [7] .

وإذا كان التعليم العربي هو من أهم مقومات الثقافة العربية-الإسلامية داخل المجتمع الجزائري على غرار المجتمعات العربية الأخرى، فالدين الإسلامي يعتبر مقوما أساسيا للشخصية الجزائرية. ومن هنا يتجلى دور المساجد والزوايا التي أدت وظيفتها في نشر التعليم بجميع أنواعه وإلحاقها بالمدارس والمعاهد العليا مثل مازونة وبطيوة ومعسكر[8]، والجامع الكبير بتلمسان وجامع سيد لعريبي وزاوية الأمير عبد القادر في الغرب الجزائري، وزاوية القليعة ومليانة وبني محي الدين وزاوية بني سلميان والجامع الأعظم بالجزائر العاصمة[9] ؛ أما شرقا فهناك جامع سيدي الأخضر بقسنطينة وزاوية سيدي عقبة بمدينة بسكرة

5 - نفس المرجع أعلاه، ص3.

6 - RINN, Louis (1882). Note sur l'instruction publique musulmane en Algérie. p10.

7 - سعد الله، أبو القاسم. تاريخ الجزائر الثقافي. ج1، ص273.

8 - C. f. BERQUE J. (1978). L'intérieur du Maghreb entre le XVe et le XIXe siècle, éd. Gallimard.

9 - EMERIT, Marcel (1954). L'Etat intellectuel et moral en Algérie en 1830. in R.H.M.C, n° Juillet, p 204.

وزاوية ابن علي الشريف في جبال جرجرة وخاصة معاهد المساجد بوادي مزاب بالصحراء [10] .

وهكذا استفادت اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية من حفظ للقرآن الكريم وتفسير للحديث وعلوم الشرع واللغة من خلال قنوات عدة مثل المدارس القرآنية والوعظ والإرشاد في المساجد ومعاهد الزوايا، أو من خلال الهجرة لطلب العلم والرجوع إلى الوطن لتقلد مناصب التدريس والتبريز –والوظائف الأخرى– أو تلقي زيارة العلماء من ربوع المغرب والمشرق العربيين، بل للبقاء فترات طويلة والتنقل عبر ربوع المناطق والمدن الجزائرية. فالمصادر جميعها تشير مثلا إلى اشتهار تلمسان بمدارسها، بعثور الفرنسيين أثناء الاحتلال على حوالي خمسين مدرسة ابتدائية وثلاثة معاهد للتعليم «الثانوي» والعالي[11] كما وجد بنفس المدينة ثلاثون زاوية تؤدي وظيفتها التربوية والدينية وسط كثافة عمرانية بلغت 12.50012 .

واجتماعيا وداخل مقاطعة تلمسان – Subdivision de Tlemcen– دائما، تفيد بعض الوثائق بغنى المنطقة ثقافيا وعلميا والتي ظلت عليه – حسب ما نعتقد ولا نستثني المقاطعات الجزائرية الأخرى– ما بين فترتي الخمسينات والسبعينيات من القرن التاسع عشر. وتحليل أحد الجداول الرسمية عن الحالة الثقافية والعلمية عن مقاطعة تلمسان مع منتصف 1854 – مستثنيا تلمسان[13] –، يساعد للوصول إلى بعض النتائج ومنها مثلا:

إن عدد القبائل التي حافظت على مدارسها القرآنية –رغم عملية الاحتلال– ووظفت دارين ومعلمين Tolbas للصبية والطلبة بلغ 56 قبيلة وعروش.

إن عدد التلاميذ والطلبة بدائرة تلمسان وحدها بلغ 367.

إن عدد الطلبة المتخرجين ليباشروا بدورهم التدريس ولمواصلة دراستهم العليا بلغ 91 طالبا في كل من نواحي الغزوات ومغنية وسبدو.

إن مواد التلقين والحفظ والدراسة ارتكزت –حسب الأطوار– من حفظ للقرآن الكريم وشرحه لغة ونحوا أو تحليلا «لألفية سيدي خليل»، و«ألفيته إلى علوم الفقه والأصول والشرع وعلم الميراث».

إن تكون النخبة الجزائرية من مدرسين وعلماء تم في حواضر ثقافية وعلمية مشهورة مثل «تزارة» و«ولهاصة» –اللتان ينحدر منهما خليفة الأمير عبد القادر

10 - Ibid.

11 -TURIN, Yvonne (1971). Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale, Ecoles médecines, religion 1830-1880, éd. Maspéro, p 127-131, Paris.

12 - Ibid.

13 - C.A.O.M, Cart 1J82. Les enseignants des écoles dans les tribus de l'arrondissement de Tlemcen. note de 7 pages datée le 13 juin 1854.

ومستشاره الأول سي أحمد البوحميدي- وتلمسان منها القاضي سي عبد القادر بن بشير مثلا وأولاد رياح وفيها فقيه المواريث سي محمد بن عزة وبني ورنيد وفيها المفتي سي محمد بن عبد الله وندرومة وفيها العادل سي محمد بن قانة . وهناك زاوية سيدي يعقوب ومازونة ومجاهر وبني يسنوس ودواير ولهشم شراقة وفقيق وأولاد سيدي الشيخ بالبيض.

أما الجدول التالي [14] من هذه الوثائق والذي أرخ في نفس الفترة فيحوي فئة العلماء الكبار من مفتيين وقضاة وطلبة التعليم العالي بالنسبة لمقاطعة تلمسان، ونلخصه كالآتي:

الفئات الدوائر	قضاة	مفتون	طلاب وعلماء
- تلمسان	12	4	24
- مغنية			2
- الغزوات			9
- سبدو			11
المجموع 62 عالم	12	4	46

ويفيد هذا الجدول هو الآخر بأسماء الفئات النخبوية في هذه المقاطعة وتكوينها العالي لغة، دين وشريعة، كما تتميز معها معاهد وجامعات تكوين هذه الفئات سواء في تلمسان وندرومة ومعسكر ومستغانم ومازونة من جهة، أو في فاس وتطوان وبني زناسن بالمغرب الأقصى؛ مما يوحي بغنى واتساع البيئة العلمية والثقافية داخل المجتمع الجزائري بالنسبة لهذه المقاطعة مع تأطيره العربي الإسلامي.

ووفقا لقانون 30 أكتوبر 1886 ومرسوم 6 ديسمبر 1887، تم إخضاع المدارس القرآنية إلى رقابة وتفتيش شديدين من قبل السلطات الفرنسية. وتخص هذه الرقابة بالدرجة الأولى الاتجاه الإسلامي [15].

وكانت المادة 48 من مرسوم 1892 قد أخضعت المدارس الخاصة الحرة الإسلامية لرقابة وتفتيش السلطات المبينة في المادة 9 من قانون 1886 ومرسوم

14 - أرشيف ما وراء البحار بأكس أون بروفانس بفرنسا، علبة 1J82، قائمة القضاة والطلبة لدى القبائل بمقاطعة تلمسان، مؤرخة يوم 13 جوان 1854، 3 صفحات، من المفيد أن يطالع دور هذه النخبة الجزائرية لدى فريمو جاك:
- FREMAUX, Jacque (1933). Les bureaux arabes dans l'Algérie de la conquête. éd. Denoël, Paris.

15 - حلوش، عبد القادر. المرجع السابق، ص183.

1887؛ وتتمثل هذه السلطات في إشراف البلديات على هذه المدارس ذات التعليم الحر ومراقبة مدرسيها، لمحاولة معرفة الانتماء السياسي للقائمين على هذه المدارس.

إن كثيرا من هؤلاء كان ينتمي إلى طرق دينية يعتبرها الاستعمار ذات طابع سياسي مناهض لوجوده وبقائه في الجزائر. فكثيرا ما قامت الطرق الدينية نفسها بإعلان الثورة على الاستعمار، بل أن الأمير عبد القادر الذي قاد الثورة الشعبية ضد الاحتلال كان ابن زعيم ومنتمي إلى طريقة دينية، الطريقة القادرية، وإلى جانب ذلك قامت ثورات أولاد سيدي الشيخ عام 1864، وثورة الشيخ الحداد 1871، والشيخ بوعمامة عام 1881.

وما من شك أن هذه البيئة الثقافية الدينية والجو العلمي الذي عرفته منطقة القطاع الوهراني قد تأثرت ملامحها بما خلفه الأسلاف من علوم وتراث أدبي وديني ولغوي وفكري [16]، وأن استمرارية هذه البيئة قد ثبتت واستمرت – ولو بدرجة أخف داخل الأوساط الثقافية والعلمية في المجتمع نتيجة الواقع الاستعماري الفرنسي، وحلوله بالجزائر خلال القرن التاسع عشر– وذلك على مستويات عدة، من زوايا ومعاهد كبرى ومدارس حرة قرآنية وتنقلات للطلبة والعلماء. فما من شك مثلا أن محاضرات المؤرخ أبي راس الناصري وحلقات دروسه «بقاعة المذاهب الأربعة» حتى بداية القرن التاسع عشر قد تركت بصماته الفكرية والتراثية في ناشئة هذه المنطقة لاحقا – 780 طالبا من مختلف جهات الوطن والمغرب الأقصى– علما أن مكتبته عدت من بين أكبر المكتبات المتخصصة 3000 مؤلف، تلتها مكتبة الأمير عبد القادر الشخصية، تلك المكتبة التي استحوذت عليها فلول العسكر الفرنسي «بتا قدمت» يوم 10 مايو 1843.

فالتاريخ الثقافي للغرب الجزائري يشيد في النهاية بدور العواصم العلمية والثقافية كتلمسان ومازونة ومعسكر مثلا، وما خلفه العديد من الفقهاء والعلماء والمؤرخين من ثراث فكري، كصاحب «المعيار»[17] «الونشريسي» وما تركه من تآليف، لعبت دورها واحتفظت بقيمتها الدائمة؛ فإلى جانب موسوعته المعيار، ترك الونشريسي مساهمات أخرى تمثلت في «إيضاح المسالك على قواعد الإمام مالك» و«المنهج الفائق والمنهل الرائق والمعنى اللائق بأداة الموثق وأحكام الوثائق»، هذا المؤلف الذي يعرف مختصرا بـ «الفائق في الوثائق» رفقة

16طالع بتفصيل محتوى جزأي «تاريخ الجزائر الثقافي»، للأستاذ سعد الله أبو القاسم والذي نرى فيه غزارة المعلومات ودقة التفاصيل...؛ وفيما يتصل بمواضيع الفكر والثراث الجزائري قارن أيضا جاك بيرك :

- Berque, Jacque (1981). Bibliographie de la culture arabe contemporaine, éd. Sindbad, Paris.

17المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب.

«تعليق على مختصر ابن الحاجب» وأجوبة فقهية عرفت بتفاوي الونشريسي. ورفقة الونشريسي هناك علماء آخرون مثل أبو القاسم العقباني وابن مرزوق الحافظ. إذ لا بد من الإشارة أيضا إلى دور المعاهد في الشريعة والفقه الذي عرفتها مازونة [18] وما تركه صاحب «الدرر المكنونة في نوازل مازونة» يحيى بن عمران المغيلي 883هـ- 1478م وأحمد المغراوي 820 هـ. فما من شك أن بصمات جميع هؤلاء العلماء وغيرهم قد حظيت بالديمومة أمثال احمد المقري صاحب «نفح الطيب» والشيخ محمد بن أحمد الحلفاوي ومحمد بن ميمون مؤلف «التحفة المرضية في الدولة البكداشية» وابن سحنون الراشدي صاحب الشرح الأدبي-التاريخي الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني وغيرهم كالعالم المؤرخ أبي رأس الناصري المعسكري[19] صاحب «نفسية الجمان في فتح ثغر وهران» وهو المتوفى سنة 1823 عن عمر يناهز التسعين سنة، وصاحب الحلقات الفكرية والدروس العلمية «بقاعة المذاهب الأربعة» كما أسلفنا الذكر. فرفقة هذه الانتاجات التاريخية- الاجتماعية والمجالات الأدبية لدى الجزائريين خلال الفترة العثمانية وبداية مرحلة الاحتلال الفرنسي فإن العلوم الشرعية، أي الدراسات القرآنية كالتفسير والقراءات والحديث ودراسته بما في ذلك الإثبات والإجازات والفقه من العبادات والمعاملات «كالنوازل»، قد كثرت وسيطرت على الحيازة الفكرية حينئذ، «ولاشك أن ذلك يعود بالدرجة الأولى أن كون القرآن والحديث كان المنبع الذي يستمد منه الجزائريون كل أنواع تفكيرهم وأنماط حياتهم»[20]، عندئذ ولاحقا.

2 - حركة المثقفين الجزائريين

كخطوة منهجية وتسهيلا للطرح والنقاش، علينا أن نسجل نقطة جوهرية وحساسة تتعلق بالطبقة المثقفة الجزائرية في القطاع الوهراني والجزائر عموما خلال العقود الأولى من القرن العشرين -بل وقبله بقليل-، إذ لا يجب حصر فئاتها في نظرنا واصطفاء دورها في «نخبة» كانت نتاج الثقافة الفرنسية المحضة والتي مثلت التيار الليبرالي لمطالب الجزائريين لاحقا . فرفقة ذلك، هناك صنف مثقف ومتشبع بالثقافة العربية الإسلامية أو مزدوجي اللغة تمثل في عناصر وأطر واعية قادت حركة النهضة في الغرب الجزائري منذ نهاية القرن 19 عشر

18بلحميسي، مولاي (1981). تاريخ مازونة. الجزائر.

19 - ولد محمد بن أحمد بن عبد القادر بن محمد بن أحمد بن الناصر الجليلي المعسكري؛ طالع سيرة هذا العالم لدى سعد الله أبو القاسم، المصدر أعلاه، ص 360-357، وأيضا «مؤرخ جزائري معاصر للجبرتي: أبو راس الناصري »، أنظر «أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر» الجزائر «الجزائر 1978، ص 83 - 103.

20أبو القاسم، سعد الله. تاريخ الجزائر الثقافي، ج1، ص9.

وصولا إلى الاحتفال الاستعماري المئوي لاحتلال الجزائر وعقد الثلاثينيات وذلك على المستوى الثقافي والسياسي. وكان لوجود هذه الفئة الثانية من المثقفين، داخل تلك النهضة نتائج حاسمة، تمثلت في خلق توازن في القوى السياسية داخل الحركة الوطنية بالغرب الجزائري، بل وقلب الميزان لصالحها خصوصا بعد نجاح وتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين رفقة خلايا نجم الشمال الإفريقي وحزب الشعب الجزائري من بعد، داخل ربوع هذه المنطقة.

فالمثقفون Intellectuels والنخبة L'Elite والمتطورون Evolués كلها أسماء ترافقت في كثير من الكتابات والأدبيات المعاصرة داخل الهيسطوغرافية الحاضرة، فقلما لوحظت مميزات إحدى الفئات وخصوصيات الأخرى داخل التعريفات العديدة بالنسبة لهذه المفاهيم.

وإذا كان مصطلح «النخبة» قد انتشر في القرن العشرين خاصة ليغطي نشرات الصحف وغيرها «فإن الصحافة الفرنسية بجميع أشكالها وألوانها هي التي أطلقت إسم «النخبة» على جماعة من الناس، تمييزا لهم عن بقية أفراد المجتمع. وذلك تشجيعا لهم لمواصلة السير في طريق الإدماج والمطالبة بالجنسية الفرنسية، لأنهم الوحيدون القادرون على التأثير على زملائهم وإخوانهم كونهم يملكون قوة فكرية وثقافية تجعلهم في الصف الأول من المجتمع بل وفي طليعته، وبهذا يصبحون بحق الوسطاء النشيطين والفعليين بين المجموعتين من المتباعدين ثقافيا ودينيا»[21].

المعروف تاريخيا أن دور المدرسة الفرنسية كان أساسيا في تكوين فئة من «المتمدرسين» تربت تربية فرنسية خالصة وفي محيط وبيئة فرنسية بعيدة عن واقعها [22]، لم تنل من ثقافتها العربية الإسلامية إلا النذر القليل، الشيء الذي جعلها لا تميز بين ثقافتها وثقافة المستعمر. هكذا عملت هذه المؤسسة التعليمية لخلق «نخبة» مثقفة وتهيئتها، تكون قادرة على نشر أفكار التقدم الفرنسي وقضائه، «بصفتها برجوازية محافظة ترتبط بفرنسا أكثر فأكثر وتميز الطريق المتبع تحت السيطرة الفرنسية »[23].

إن المدرسة الفرنسية كانت تبحث في هذا الاتجاه على إقناع الجزائريين بكافة الوسائل بعظمة وقوة فرنسا –خوفا من تحول التيار الوطني ضدها– فوضعت الغاية التي هدفت إليها «أن الهدف المنشود ليس تكوين موظفين خاصين ولا تحضير مدرسين للتعليم العمومي، وإنما لتكوين رجال يساعدوننا على تحويل

21 حلوش، عبد القادر، المرجع السابق، ص 253 - 256.

22 حلوش، عبد القادر، المرجع السابق، ص263.

23 - Collona, F. (1975). Les instituteurs algériens 1883-1939. éd. O.P.U, p 82, Alger.

المجتمع العربي وفق متطلبات حضارتنا» [24] .

أمام هذه المعطيات الاجتماعية التاريخية لتهيئة النخبة، علينا أن نقر أنها تكونت في المدارس «العربية-الفرنسية» والثانويات التي أنشئت بعد 1850 وغيرها من المعاهد الفرنسية التي منحت هذه «النخبة» مدخلا إلى الثقافة الأوربية كمدرسة «تكوين المعلمين» ببوزريعة.

إن الطرح يوحي بأننا بصدد تمييز شريحة من المجتمع الجزائري وهي «الشريحة النخبوية» ذات الثقافة الفرنسية التي انبهرت بالحضارة الفرنسية وراهنت على الفرنسية واقتنعت بضرورتها وإمكانياتها.

وفي خطوة أخرى نود مقاربة الصنف الثاني من المثقفين الجزائريين وهي الطبقة المتشبعة بالثقافة العربية الإسلامية أو هي مزدوجة اللغة والثقافة والوعي بالهوية الوطنية. «وهو صنف المتعلمين الذين استفادوا من فرص التعليم الفرنسي وإن بدرجات متفاوتة. لكنهم ظلوا متشبثين بمظاهر الشخصية الوطنية حريصين على عدم الانفصال عن قاعدتهم الاجتماعية، ويشمل هذا التمسك بالشخصية العربية الإسلامية مظاهر مختلفة، اجتماعيا وفكريا وسياسيا ؛ تمثلت كما يشير محمد الميلي في الحفاظ على طابعهم العربي الإسلامي في لباسهم وسلوكهم داخل المدرسة وخارجها، وتمسكهم الفكري والسياسي في تأييد الحركات الإصلاحية الدينية، وتأييد أي حزب سياسي وطني قد يظهر في المستقبل من جهة أخرى.

من بين الملاحظين الموجودين بالجزائر والقريبين من هذه الطبقة المثقفة هناك المستشرق «جورج مارسي» Géorges Marçais الذي كان مديرا للمدرسة العليا بتلمسان حيث اعتبر النخبة «أولئك الجزائريين الذين جمعوا بين الثقافة العربية والثقافة الفرنسية والذين يعرفون عن مؤلفي العصر الإسلامي الذهبي وعن كتاب التراث الفرنسي»[25]. أي تلك الجماعة التي درست كلا من الحضارة العربية والفرنسية.

وإذا حاولنا الاستناد في الطرح على هذه الازدواجية في الثقافة واللغة عند هؤلاء المثقفين، فإننا نلح من ناحية أخرى على «مفهوم» الوعي conscience الاجتماعي والسياسي الذي اتسمت به هذه الطبقة، وبمرور الزمن حيث التعبئة، أو الشعور بدورهم الهام الذي يلعبونه في شؤون بلادهم، وبصفتهم «أنتيليجانسيا» Intelligencia بالمفهوم الروسي أثناء تلك الفترة يواجهون مشاكل أمتهم الكبيرة.

وإن تتبعنا تاريخيا حقيقة بروز هذه الطبقة المثقفة، للاحظنا أنها كانت نتاج

24 - تورين، ايفون ، المجابهات الثقافية...، ص73.

25 - سعد الله أبو القاسم ، المرجع السابق، ص185.

الأسلوب التعليمي-المفروض فرنسيا- ووسط البيئة الثقافية التي احتضنته منذ منتصف القرن التاسع عشر والذي أدى نتيجة السياقات التكوينية إلى نوعين من المثقفين؛ مثقفي المدرسة الفرنسية ومثقفي المدارس والمعاهد القرآنية والجامعات الإسلامية. وحتى إذا حصل هذا الانقسام حقيقة فلا يجب أن ينظر إليه بصفة تفرع ثنائي، إذ يجب الأخذ في الاعتبار واقع المثقفين المتخرجين من المدارس الإسلامية الجزائرية -تلمسان، قسنطينة والعاصمة- أولئك الذين يشكلون عملية اتصال بين النوعين»[26] السابقين. وحتى مسألة الانقسام اللغوي عند المتفرنسين والمعربين يجب تفادي طرحها داخل علاقة معارضة، بل فهمها في سياق منافسة- تكاملية [27] .

فمن المسلم به أن اللغة الفرنسية هي لغة مؤسسات النظام الاستعماري والمهيمنة داخل الأوساط السياسية والاقتصادية مقارنة إلى اللغة العربية؛ إلا أن دور اللغة العربية لم يختف رغم تقلصه في المحيط الرسمي الاستعماري. فمن ناحية هناك ثبات واستمرارية هذه اللغة داخل بيئتها الثقافية العربية الإسلامية، ومن ناحية أخرى فإنها استطاعت مواكبة التغيرات الاجتماعية الاقتصادية والسياسية التي حصلت طوال الفترة الاستعمارية الممتدة خلال القرن التاسع عشر والعقود الأولى من القرن 20 إن في مجال التكوين التقليدي والترجمة والإدارة، ومواكبة تيار النهضة والحداثة المسجلة في المغرب العربي الصحافة والخطابة، العرائض، الأندية والجمعيات اقتداء بما يحصل في المشرق العربي.

في الغالب كان التعليم السائد والمنتشر في ربوع المناطق الجزائرية هو التعليم العربي التقليدي الذي استمر في تأدية وظائفه. فحسب إحصاء 1871 كان عدد الزوايا بمؤسساتها الدينية والثقافية تقترب من الألفي زاوية تشرف على تعليم وتثقيف حوالي 28000 تلميذ من السكان [28]. كما كانت هذه المدارس التقليدية تكون وتحضر الطلاب للالتحاق في المستقبل بالمعاهد المشهورة مثل جامع الزيتونة في تونس، وجامع القرويين في مدينة فاس، وأحيانا أخرى إلى جوامع المشرق العربي في مصر وسوريا والحجاز.

3 - دور «المدرسة الإسلامية» بتلمسان

عندما نحاول ملامسة البيئة الثقافية التي حوت إلى حد ما عملية تكوين الناشئة الجزائرية خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين،

26 - DjeglouL, A. E. K. (1988). La formation des lettrés modernes algérien 1880-1930. in travaux du laboratoire d'histoire et d'anthropologie sociale et culturelle C.R.A.S.C Oran, O.P.U, n°04, pp7-9, Alger.

27 - Djegloul, A. E. K., op.cit.

28لورا- بوليوب ، الجزائر وتونس، ص251.

حتى تبرز وتتطور في شكل شريحة مثقفة ونخبوية، فمن الضروري التأكيد على الدور الذي لعبته المدرسة الإسلامية العليا بمدينة تلمسان Medersa de Tlemcen على غرار مدرستي قسنطينة والعاصمة انطلاقا من تاريخ تأسيسها.
فهي المدرسة التي «نشأت في شهر جويلية 1848 «بالعباد» قرب مسجد سيدي بومدين –في البداية– بهدف تعليم الشباب وخصوصا تكوين «الدرارين» بالنسبة للقبائل [العربية]، تفاديا من توجههم إلى زوايا منطقة القبائل حيث التعليم المناوئ لنا » [29]، قبل أن تتأسس نهائيا بقرار رآسي في 30 سبتمبر 1850 حيث اختصت بالدراسات التعليمية الهادفة إلى تكوين وتخريج موظفين تحتاجهم الإدارة الاستعمارية كالمفتي والعدول والمترجمين ومدرسي اللغة العربية.
ومن ناحية البرامج التي شملته هذه المدارس الإسلامية في مرحلتها التأسيسية 1848 - 1850 هناك «مواد التوحيد والفقه التشريعي والنحو واللغة» [30] ؛ قبل أن تصقل ببرنامج أكثر كثافة وفقا للمادة الرابعة من مرسوم 1876 التي حوت تعليم اللغة الفرنسية والتاريخ والجغرافيا والحساب وبعض مبادئ القانون الفرنسي كالقانون المدني، والجنائي والإداري، بالإضافة إلى تعليم اللغة العربية والأدب العربي وعلم التوحيد والقانون الإسلامي.
وفي هذا الإطار لا بد من الإشارة إلى مرسوم 21 نوفمبر 1883 الذي أعفى حكام المقاطعات العسكرية من مراقبة المدارس الإسلامية وإرجاعها إلى الحكام المدنيين Préfets، رفقة نقل تسيير هذه المدارس والإشراف عليها من طرف مديرية التربية. أما مرسوم 23 مارس 1895 الذي جاء تتويجا للتقرير الذي قدمه عضو من مجلس الشيوخ، «كومب» Combes حول «وضعية تعليم الجزائريين» فقد أتى بعدة إصلاحات وحدد مدة الدراسة في هذه المدارس بأربع سنوات عوض ثلاثة ؛ وتأسس إلى جانب ذلك قسم عالي «La Division Supérieure» تكون مدة الدراسة سنتان وهو ملحق بمدرسة العاصمة، أي ما يساوي في المجموع ست سنوات. وهذا القسم العالي مخصص فقط لعدد قليل من العناصر التي تثق فيها الإدارة الفرنسية، والذين تربطهم معها علاقات حسنة [31]، لأنهم سيتولون مناصب عالية ومهام في القضاء الإسلامي؛ ولا يلتحق بهذا القسم إلا الطلبة الحاصلون على «شهادة الدراسات» المتخرجون من المدارس الإسلامية الثلاث. كما تأسس بحكم هذا المرسوم صف جديد للصحة العامة وشعبة للتجارة لم يكتب لهما النجاح الكبير.

29 - Centre des Archives d'outre-mer à Aix-en Provence, cart 1J82, rapport sur l'école supérieure de Tlemcen.

30 -Idem.

31نشرة التعليم الأهلي، رقم 13، ص15.

ورجوعا إلى المنطقة الوهرانية –بعد هذا العرض التنظيمي للمدارس الإسلامية الثلاث– فإننا نرى دور المدرسة التلمسانية مهما للغاية سواء من الناحية الزمنية 1848 - 1912 وما بعد أيضا في استقباله لوفود الطلبة وتخرجهم، أو فيما يتعلق بالجانب التكويني لهم وهو التكوين الذي اقترب بيداغوجيا من التحديث في البرامج على الطريقة العصرية عبر المراحل التاريخية المعروفة.

إن المحلل للأرشيف والوثائق المتعلق بالمدرسة الإسلامية التلمسانية [32] يلمس جوانب عديدة بالنسبة للبيئة الثقافية والعلمية التي كانت تسير عليها المدرسة منذ بداية عهدها وبالنسبة للعلاقة المنسوجة بينها –كمؤسسة علمية وتربوية– وبين الزوايا الدينية التي كانت تزودها بأفواج الطلبة لفترة طويلة، مثل زاوية أولاد سيدي الطيب «بعمي موسى»؛ وفي مرحلة ثالثة هناك علاقة عضوية وتكاملية بين أساتذة الشريعة واللغة والفقه الذين ينتمون إلى هذه المدرسة والمدرسين Mouderres في مساجد المدن الكبرى كتلمسان، وهران، معسكر، بلعباس ومستغانم بصفتهم مفتين وأئمة ومعلمين داخلها، يمكن إلحاقهم كأساتذة بالنسبة للمدرسة التلمسانية من الإدارة الحكومية أثناء شغور المناصب؛ وفي حالات عديدة يُعيِّنُونَ في القضاء الرسمي بصورة عادية أو كمستشارين ومساعدين في بعض المهام العليا، مثلما حدث مثلا «لسي بوعلي الغوتي بن محمد»، المدرس بمسجد سيدي بلعباس عندما انتدب إلى مدينة طنجة المغربية ليساهم في تحرير جريدة «السعادة» [33] لستة أشهر ومنذ مايو 1904.

ونعتقد أن شريحة واسعة ورئيسية من الطلبة المتخرجين من هذه المدرسة استطاعت أن تحتل مكانتها في المجتمع الجزائري كوسيط داخل المؤسسات الاجتماعية والدينية والثقافية كإداريين وقضاة ومفتين ومدرسين وغير ذلك [34]. وإذا كانت أفواج الطلبة التي التحقت بالمدرسة حكرا على مدينة تلمسان في بداية عهدها 1848 - 1860، فإن فئات أخرى من مختلف مناطق القطاع الوهراني الساحلية والداخلية –من الزوايا وطلبة الأقسام الملحقة بالمساجد الكبرى في العمالة– أصبحت تتنافس على مقاعدها 1860 - 1880 قبل أن تمنح أولوية القبول داخلها للتلامذة الجزائريين المتحصلين على شهادات المدارس الفرنسية، أي أولئك المتخرجين من المدارس العربية الفرنسية Ecole Arabe-Française خصوصا بعد مراسم الإصلاحات التربوية

32منها مثلا أرشيف ما وراء البحار بآكس أون بروفانس مع محفوظات رصيد «الحكومة العامة» تحت أرقام:
1.S24, 2.S24, 20J60 et 1J83

33 - مديرية الأرشيف بولاية وهران، علبة 4471، عرض عن وضع الأهالي السياسي، نوفمبر 1904.

34 - من ذا ضرورة بروز أبحاث جامعية عن هذه «المدرسة-المؤسسة» بالنسبة للتاريخ الجزائري داخل الحقبة الكولونيالية.

سنتي 1877 و1895.

معدل الطلبة المسجلين بالمدرسة الإسلامية بتلمسان			
الفترات التاريخية	المعدل	الفترات التاريخية	المعدل
1852 – 1848	25	1887 – 1883	44
1857 – 1853	35	1892 – 1888	26
1862 – 1857	51	1897 – 1893	38
1867 – 1863	60	1902 – 1898	33
1872 – 1868	55	1907 – 1903	47
1877 – 1873	53	1912 – 1808	56
1882 – 1878	50		

ونخلص فيما يرتبط بهذه المدرسة أن تلمسان كانت إلى ما بعد 1900 تقوم بدور هام «كعاصمة دينية في الجزائر» [35]، والتي استطاعت أن تكون دفعات من الطلبة ابتداء من 1848 متشبعة بالثقافة العربية الإسلامية، وملمة بالعلوم واللغة ومبادئ القانون «المدني» و«الجنائي» و«الإداري» الفرنسي. وبازدواجية ثقافة ولغة هـؤلاء الطلبـة فهم مطلعون بالطبع على الحالة السيئة التي يوجد عليها الجزائريون –نتيجة السياسة الاستيطانية الاستعمارية منذ 1830 – اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا. وهم على دراية رفقة زملائهم المتنورين من «صف المعلمين» وبعض «المثقفين التقليديين» كأبي بكر عبد السلام بن شعيب وأمحمد بن رحال الندرومي بما كان يجري رسميا في الجزائر من «تقصي البعثات البرلمانية» في المسائل التي تخص المجتمع الجزائري كما حصل مع «بعثة الثلاثة والعشرين» لجول فيري Jules Ferry سنة 1892، وبعثة 1900 وغيرها بدعوى ضرورة القيام بالإصلاحات في الجزائر.

4 - حركة الشبان الجزائريين بتلمسان

شكـل قسـم من تلـك الشريحة الهامة والمتميزة من خريجي المدرسة العربية– الفرنسية ومدرسة تلمسان الإسلامية مع قسم «من صف المعلمين» والجامعيين وما شابههم حركة «الشبان الجزائريين» في عمالة وهران، أو ما اصطلح على نعتهم لأول مرة في تاريخ الجزائر الثقافي والسياسي «بالشبان الأتراك» من طرف «المستشرقين» إدمان دوتي E.Doutté ووليام مارسي W. Marçais ؛

35 - AGERON, Ch. R. (1964). Le mouvement Jeune Algérien de 1900 à 1923. in études maghrébines, mélange Charles André Julien, éd. P.U.F, p 217-243, Paris.

وهما آنذاك أستاذان بالمعهد العربي-الفرنسين ومدرسان بالمدرسة الإسلامية التلمسانية. فهما اللذان لاحظا ذلك «التغير في الذهنية» لدى الشباب الجزائري وذلك «المجهود للإصلاح الديني» [36]، مما يوحي لنا بجدية النقاش العقلي داخل بيئتهم الثقافية مع نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين خصوصا بعد مجيئ شيخ جامع الأزهر «المصلح»، محمد عبده إلى الجزائر عام 1903.

وتكلم أيضا عن هذه النخبة من الشبان الجزائريين «المفكر المثقف» أبو بكر عبد السلام بن شعيب، الأستاذ بمدرسة تلمسان بمناسبة «أشغال المؤتمر العالمي لعلم الاجتماع الكولونيالي» سنة 1900 «بكونها نخبة جزائرية تملكت بعمق في اللغة الفرنسية بترددها على مدارس العاصمة أو على المدارس [«الإسلامية» العليا بتلمسان وقسنطينة والعاصمة] كما درست الآداب واللغة الفرنسية... [وغير ذلك من العلوم]...»[37] .

من جهة أخرى نتصور الجو الثقافي-السياسي الذي كان عليه الشبان الجزائريون سواء بمطالعتهم « للصحف والمجلات الصادرة في الجزائر أو المسموح بدخولها»[38] من الخارج، أو نشاطهم داخل «الأندية» و«الجمعيات» التي يؤسسونها، الأمر الذي سيبلور أفكارهم ويصقل آراءهم وينظم اتجاهاتهم السياسية اتجاه القضايا المختلفة التي يعاني منها المجتمع الجزائري.

وكما أسلفنا فإن الشريحة الثانية التي ستبلور تيار «الشبان الجزائريين» هي الأخرى، تمثل أولئك المدرسين Instituteurs وأعوان المدرسين وبعض الطلاب الثانويين وبعض الجامعيين والصناعيين، أي أولئك الذين استطاعوا أن يستفيدوا من السياسة التعليمية التي تبناها «الجمهوريون». وهي السياسة التي كان لها أصداء في الجزائر حيث استخدمت بعض الشخصيات نفوذها لمحاولة خدمة «التحرير الثقافي» للجزائريين أمثال جول فيري J.Ferry وأوغست بوردو A.Burdeauواميل كومب E.Combes وليبون بورجوا L.Bourgeois وألفريد رامبو A.Rambaud وغيرهم؛ إذ لم يكن الجمهوريون يرغبون في أن تصبح قضية تعليم الجزائريين من اختصاص الكولون، ولم يكن تصرف الجمهوريين بهذا الشكل من 1882 إلى 1892 وعلى رأسهم جول فيري نابعا من مبدأ «الحياد المدرسي الغالي على الجمهوريين بقدر ما يعبر في حقيقته عن وجود سياستين استعماريتين واحدة في باريس والأخرى في الجزائر»[39].

36 - Cf. Doutte, Edmond. L'Islam Algérien en 1900. in B.S.G.A.O, n° 1900.

37 - طالع تدخل هذا المثقف الجزائري داخل أشغال هذا المؤتمر حول : مسألة اندماج أهالي المسلمين بالجزائر مع الفرنسيين، من 6 إلى 11 أوت 1900.

38طالع مختلف التقارير و«العروض» عن «حالة الأهالي الذهنية» بين 1903 و1914، مديرية الأرشيف بولاية وهران ، علبة 4471 وغيرها.

39 - كولونا، ف.، مرجع سابق، ص39.

فمدرسة الجمهوريين تمثل سياسة الدمج وإلحاق المستعمرة بالوطن الأم في حين تمثل مدرسة الكولون سياسة الانفصال عن فرنسا والاستقلال بنفسها لأن القوانين المتعلقة بالأرض والقضاء والإدارة كانت تسير وفقا لمصالح هؤلاء الكولون، و»أن المدرسة كوسيلة للإدماج كانت تشكل خطرا عليهم» [40].

وفي مرحلة أخرى استطاعت هذه الشريحة من المثقفين النخبويين أن تبرز أيضا نتيجة سياسة الحاكم جونار «الأهلية» 1900 - 1911 التي كانت تهدف إلى جلب الطبقة المثقفة إلى فرنسا لبث «رسالة فرنسا الحضارية».

ولقد اقتربت هذه الجمعيات «الثقافية-السياسية» في أهدافها ونشاطها بعقدها سلسلة من المحاضرات الهامة، ومساعدة الشباب الجزائري على العمل، والتفكير، والعيش عيشة حديثة، أي القيام بجمع أولئك الجزائريين الذين يرغبون في تثقيف أنفسهم وتطوير أفكارهم العلمية والاجتماعية، وتكوينهم السياسي بمطالعة الصحف المختلفة وباللغتين، جزائرية كانت، مشرقية أو غيرها من صحف عواصم العالم.

إن الأندية والجمعيات الثقافية على مستوى الغرب الجزائري قد واكبت هي الأخرى النهضة «الثقافية والسياسية» التي كانت تجري في الجزائر، ومبكرا. فمنذ 1901 وجد بتلمسان «حزب [جماعة ؟] الحضارة والتقدم»[41]. ونفس هذه المدينة الحضارية والثقافية كانت السباقة على مستوى مدن القطاع الوهراني في رؤية مثقفيها يؤسسون «نادي الشبان الجزائريين» يوم 28 مارس 1910 حيث تشكلت اللجنة الإدارية من أستاذ وهو «أبو بكر عبد السلام بن شعيب»، ومدرس بوعلي غوتي وخوجا ابن تركية محمد وموظف بالبنك ابن دالي محمد وتاجر شلابي عبد الكريم مع ستة معلمين وهم بغشي محمد وابن اسماعيل محمد وبوعياد محمد وعبورة مصطفى وقلوش قادة ومسلي محمد. وعندما تجددت إدارة هذا النادي يوم 23 مارس 1912، طرأ تغيير على هيأتها بصعود أربعة تجار شلابي عبد الكريم، وابن عمر بن علي وديب يوب وخراجا الحاج، وثلاثة مدرسين بخشي محمد وابن اسماعيل محمد وعبورة مصطفى ومساعدي محام ابن ددوش مصطفى وويس غوتي، ومحامي طالب عبد السلام، ومحاسب ابن يادي محمد، وفلاح بربر بن علي وملاك مالطي محمد . وخلال سنة 1912 أسس المدرسون المسلمون بتلمسان دائما جمعية رياضية سميت «النادي المسلم التلمساني» ترأسه المحامي طالب عبد السلام.

إن محفوظات الأرشيف المنوطة بهذه الجمعيات والنوادي عبر جزائر ما قبل الحرب العالمية الأولى، وخلال فترة ما بين الحربين والتي هي بصدد الترتيب

40 - المرجع نفسه، ص40.

41 - مينييه ج ، المرجع السابق، ص217.

النهائي لوضعها بين أيدي الباحثين [42] تؤكد مدى اتساع انتشارها مع مطلع القرن العشرين إن في المجال الثقافي-السياسي، الاجتماعي، الرياضي أو الديني les cultuelles عبر نواحي ومناطق الجزائر كلها، وذلك على مستوى الجزائريين والأوربيين؛ إذ شهدت مدينة وهران ميلاد «النادي الوهراني» عام 1911 من طرف اللجنة المشرفة على صدور «جريدة الحق الوهراني» وهو النادي الذي كانت تتردد عليه وتجتمع فيه أنتيليجانسيا القطاع الوهراني كأمحمد بن رحال الندرومي وغيره.

وعرفت هذه المدينة أيضا منذ مطلع القرن العشرين بداية النضال والصراع الاجتماعي الذي كان يؤطره مثقفو وبورجوازيو أنديتها بتوجههم نحو الشغيلة الجزائرية لتنظيمها، كما حصل مع الشاب «ابن سعد» وهو من أعضاء لجنة جريدة «الحق الوهراني»، المنشط الرئيسي بالنسبة «لجمعية التضامن الخيري الأهلية» من 1900 إلى 1930 [43]، و«العربي فخار» الذي ترأس «نقابة الشحانين الوهرانيين» وهي النقابة التي تأسست بين 1903و1904 [44]. وعندما ترعرعت جريدة «الحق الوهراني» أسس الشبان الجزائريون المنتمون إليها «جمعية المدرسين الأهالي لعمالة وهران" في مايو 1912 [45]، عرفت باسم «جمعية الصداقة" وكان على رأسها معبد بن عودة.

ونتيجة هذا النشاط الثقافي-السياسي كله وبروز هذه النواة من المثقفين الواعين من داخل البرجوازية الإدارية الجزائرية، رفقة بعض المدرسين ممن أفرزتهم البرجوازية الصغيرة مطلع القرن الجديد، هناك تبلور تيار سياسي مبكر، لخوض غمار "التحديث" والإلمام بمشاكل المجتمع و"عجزه" عندما استطاعت جماعة من النخبة تأسيس لسان لها بوهران، متمثلا في البداية في صحيفة "المصباح" El-Misbah برئاسة المدرس العربي فخار خلال شهر جوان 1904؛ رفقة بعض المدرسين والإداريين الجزائريين من القطاع الوهراني أمثال "حمدان بوركايب" و"غمري حميدة" و"ابن منصور الصنهاجي" وأمثال الذين كانوا يوقعون مقالاتهم وتدخلاتهم بأسماء مستعارة مثل "الحاج" و"ابن

---

42 - لم نستطع إقناع المسؤولين بمديرية أرشيف ما وراء البحار بأكس أون بروفانس Aix-en Provence لتزويدنا بملفات عن هذه الأندية والجمعيات أثناء وجودنا بالمكان نهاية عام 1993، قصد استغلالها بشكل أوسع. فكانت حجتهم أن عملية الفرز والترتيب المنوطة بذلك الأرشيف لم تتم بعد، وسلمت لنا قصرا «محاولات جرد» أولية أفادتنا بوجود 13 رزمة من الحجم الكبير تمس فترة 1902-1953 بالنسبة للجزائريين والأوربيين والإسرائيليين، داخل القطاع الوهراني من رزمة رقم 3277 إلى رزمة رقم 3290، إذ حوت الرزمة الأولى منها أي 3277 حوالي 75 ملف خاص، لمختلف الجمعيات والنوادي.

43المصدر السابق.

44 - نفس المصدر أعلاه.

45 - جريدة «الحق الوهراني»، مايو 1912.

خلدون" و"علاء الدين" Aladin و"ميمون".
وتعد صحيفة "المصباح" أول جريدة تعبر عن تيار الشبان الجزائريين في الوطن. وبصفتها صحيفة مزدوجة اللغة. وكانت مقالاتها مختلفة في طروحاتها "للمواضيع" ولو أنها اتسمت بالتقارب في بعض المبادئ كالمطالبة "بالتقدم" و"العصرنة" و"التفتح" و"التعلم الفرنسي" ومحاربة "الكسل" و"الإجحاف" و"الخمول" و"العادات القديمة". كما وجهت عنايتها إلى مشكلة الشباب الجزائري لحثهم على التعلم. "لاسترجاع مكانتهم الضائعة"؛ ونصبت "المصباح" نفسها خلال هذه الفترة القصيرة من عمرها 1904 - 1905 صاحبة مهمة للدفاع عن المصالح المادية والمعنوية "لهذا الشعب العربي"، ناقدة الوضع السائد في الجزائر بسبب إجحاف الكولون وسياسة الإدارة الفرنسية الاضطهادية؛ بذلك احتل موضوع "الشباب العربي" المكانة الأولى في افتتاحية "المصباح" بتوجيه نداء له من طرف العربي فخار لِحَثِّه الخروج من سباته [46] مع مطلع هذا القرن الجديد والإقدام على استيعاب أفكار "التقدم":
"نتساءل أحيانا هل نملك المزايا الضرورية لنساهم في تطور المجتمع،"وبطرحنا هذا السؤال ننكر برضا الدور الكبير الذي لعبه آباؤنا في التاريخ. ورغم "انحطاط حضارتنا منذ عدة قرون فإنها لم تتلف نهائيا. أما تراثنا الثقافي فليباشر لأنه "لم يمت... أما تقاليدنا فإنها لم تتأثر قط وأقل منها معتقداتنا الدينية. ولنسأل أنفسنا: "ألسنا جديرين بمصير أفضل؛ إذا فالشعار الذي يجب أن يغرسه كل مسلم يكون "صديق "التقدم" حقيقة، هو تطوير حالته الذهنية والعلمية. فالإنجاز والهدف ليس من "دور المسلم وحده ولكنه فرنسي أيضا"[47] .
فالمحلل للخطاب الصحفي الذي تضمنته جريدة "المصباح" يجد المفارقة الكبيرة، وبعيدا كل البعد عن مطالب وآراء القسم الآخر من أعضاء جماعة النخبة المتفرنسة والتي تزعمت اللائكية و«ترك الدين» والمطالبة بالتجنيس أمثال بوضربة وديندان .
كما تؤكد "المصباح" على "القيمة الحضارية" التي يتميز بها الشعب الجزائري عندما "نقتنع أن قوة شعب هي ثقته بنفسه، هذه الثقة التي يستقيها عندما يشعر بقيمته"[48] الحضارية. وتتطلع من ناحية أخرى في أعدادها الأولى، إلى الدور الذي يجب أن يكون من نصيب المثقفين –أولا– ليلعبوه في حل "المسألة العربية"، أي مشاكل الشعب الجزائري، وهو «الذي تهاون ولم يعبر عن حقيقة

46 - «المصباح»، عدد 4 جوان 1904.

47 - «المصباح» عدد 10 جوان 1904.

48 - «المصباح» نفس المرجع السابق.

مشاعره أثناء اختيار نوابه وممثليه». ولهذا «يجب أن يسمع صوتنا» وحتى "نساهم في المناقشات الجادة التي تهمنا. متمنينا أن يؤخذ بآرائنا أكثر فأكثر، عندما يعبر عنها بنزاهة واحترام عرب متنورون وليبراليون"[49] . وكما تحاول "المصباح" إقناع السلطة الاستعمارية بهذا الدور المرجو، فإنها تؤكد حقيقة وجود هذه "الطبقة" من المثقفين الجزائريين الواعين و"العهد الجديد الذي حل"، "مما يترك للمسلمين الجزائريين إمكانية المساهمة في وقت قريب ونشاط في الإنجاز المشترك بتحمل نصيبهم من المسؤولية التي هي من حقهم"[50].

استطاع هذا الشباب النخبوي الواعي أن يعزز نضاله الوطني ابتداء من 1911 بتأسيس صحيفة ثانية باللغتين أيضا، وهي "الحق الوهراني"1911 - 1912. وهو المنبر الذي تحسس أكثر مشاكل ومصير الطبقة الشعبية، وتميز بخطه الوطني كما سنلمسه في المحور الوارد ومواقفه "الصادقة" في بعض القضايا المصيرية للمجتمع الجزائري مثل "التجنيد العسكري الإجباري" و"الحقوق السياسية"وغيرها؛ حيث استطاع هذا المنبر أن ينال ثناء وارتياح بعض المفكرين والصحفيين في القطر الجزائري ببروزه في أصعب مقاطعة استيطانية مثلها القطاع الوهراني؛ ومنهم عمر راسم الذي كان يحرر جريدة "الجزائر" الشهرية، ذات اللسان العربي والتي هدفت إلى توعية وتثقيف وتعليم الجزائريين عن الوضع العالمي: "القطر الجزائري منذ ترعرعت الحرية في جميع الأقطار امتدت أشجارها بالجرائد "التي تطعم أهلها بالأفكار الثاقبة والأقوال النافعة... قد نبغ ما بين أولاده من يستحقون "الشكر والثناء لأنهم سعوا في ترقيته والدأب عن مصالحه ودفع كل ما يكرهه ويحط "من فضيلته فلهم الشكر ولهم الثناء... قاموا بأمر عظيم طالما تمنته البلاد والعباد وهو "إنشاء جريدة "الحق" والتي لا تنطق إلا بالحق والتي لا تنهى إلا عن منكر ولا "تخاطب إلا بالصدق حتى نبين قبول كل مفكر عاقل وأخذت جلب بنيل كامل. إن هذه "الجريدة الصادقة هي أحق أن تكون لسان حال مسلمي شمال إفريقية لأنها أصدق "الجرائد لهجة وأهمها فائدة وأعظمها نفعا. إنها أحق أن تنشر وتقرأ والحق "إخوان...- يتبع- الجزائر رجب عام 1320، عمر راسم. [51]

خاتمة

إن هذه البرجوازية الجزائرية "الحضرية" رغم نسبتها الصغيرة وصحبة سكان المدن، هي التي ستلعب دورها خلال العقود التاريخية المقبلة في جزائر ما قبل

49 -»المصباح»، عدد 10 جوان و21 جويلية 1904.

50 -»المصباح»، عدد 2 سبتمبر 1904.

51 - «الحق الوهراني» عدد 29-22 جوان 1912.

الحرب العالمية الأولى وفيما بعدها، حيث أنها استطاعت أن تسترجع سياسيا ما فقدته القوى الريفية في السابق، الأمر الذي سيحفز على تغيير العلاقات السياسية الاقتصادية، داخل ما نسميه تبلور الوعي السياسي -الديني- والثقافي داخل المجتمع الجزائري وتدشين مرحلة حوار تاريخي تميزت به الحركة الوطنية الجزائرية خلال مرحلة تاريخية لاحقة امتدت منذ نهاية الحرب العالمية الأولى وإلى بداية الخمسينيات من القرن العشرين.

أما الشريحة التقليدية من شيوخ الزوايا والمعاهد الدينية فلقد واضبت عموما مهمتها التثقيفية الدينية واللغوية وسط المجتمع الجزائري، ونراه دورا أساسيا وإيجابيا للمحافظة على مقومات الشخصية الجزائرية وتعميق "الوطنية الجزائرية" كحقيقة منشودة تاريخيا.

المراجع

Archives

1- Archives d'outre-mer à Aix-en-Provence, France, 9H17, 9H18 et 9H20, surveillance politique des indigènes, 1926-1939.

2- Archives d'outre-mer à Aix-en-Provence, France, 9H35, étoile P.P.A, mouvement de nationalisme arabe.

3- Archives d'outre-mer à Aix-en-Provence, France, 9H46, Oulèmas 1934-1946, congrès musulman algérien, 1936.

4- Archives d'outre-mer à Aix-en-Provence, France, 9H46, cercles intellectuels, étudiants, élus 1934-1938.

5- Archives d'outre-mer à Aix-en-Provence, France, 9H47, nationalisme, mouvements, presse, Leaders, 1937-1938.

6- Archives d'outre-mer à Aix-en-Provence, France, 9H48, fédération des élus musulmans et Oulèmas, front populaire, département d'Oran.

7- Archives de la wilaya d'Oran, carton 2260, Publication du centre d'information et d'études, note sur l'Oranie, 8ème note, 1937.

8- Archives de la wilaya d'Oran, carton 2260, Publication du centre d'information et d'études, dossier étoile nord africain, 1936.

9- Archives de la wilaya d'Oran, carton 2260, Publication du centre d'information et d'études, note sur l'activité du P.P.A en 1941.

10- Archives de la wilaya d'Oran, carton 4475, surveillance politique des indigènes en Oranie, 1935, dossier sur le P.P.A, ordre général.

11- Archives de la wilaya d'Oran, carton 4475, surveillance politique des indigènes en Oranie, 1935, dossier sur l'E.N.A-P.P.A à Mostaganem.

12- Archives de la wilaya d'Oran, carton 4480, état d'esprit des indigènes en Oranie ,1937-1939.

Ouvrages

1- Ageron, Ch. R. (1979). Histoire de l'Algérie contemporaine : de l'insurrection de 1871 au déclenchement de la guerre de libération 1954. éd. P.U.F., Paris.
2- Bouguessa, K. (2000). Aux sources du nationalisme algérien, éd. Casbah, Alger.
3- Collot, Claude (1977). Les institutions algériennes pendant la période coloniale, éd. O.P.U, Alger.
4- Collot, C. et HERVY, J. (1978). Le mouvement national algérien : textes 1912-1954. O.P.U, Alger.
5- Jullien Ch. A. (1972). L'Afrique du Nord en marche, Paris, Julliard, .
6- Kaddache, Mahfoud (1980). Histoire du nationalisme algérien : question nationale et politique algérienne. éd. S.N.E.D, Alger.
7- Messali, Hadj (1982). Les mémoires (1889-1938). éd. J.C. Lattès.
8- Nouschi, A. (1962). La naissance du nationalisme algérien (1914-1954). éd. de minuit, Paris.
9- Stora, Benjamin (1969). Les sources du nationalisme algérien, éd. l'Harmattan, Paris.
10- Violette, Maurice (1991). L'Algérie vivra-t-elle? : Notes d'un ancien gouverneur général, éd. Alcan, Paris.
11- Zenati, R. (1938). Le problème algérien vu par un indigène. in Bulletin du Comité de l'Afrique Française.